تشكيلات التعدّد اللغوي والعامّية في شعر لخضر بن خلوف

Forms of dialect and linguistic pluralism in the poetry of Lakhdar bin Khloof

الطالب: حمزة بوزيان
إشراف: أ.د محمد ملياني
جامعة أحمد بن بلّة وهران1 (الجزائر)
p.belaid2014@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/01/28 تاريخ القبول: 2019/03/17 تاريخ النشر: 2019/04/01

ملخّص البحث:

إن المتصفح لتراثنا المغاربي يرى بأنه غني بالأعلام والشعراء الأفاضل البارزين الذين كان لهم الفضل الكبير في وضع أحداث تمثل نقطة تحول للخطاب الشعري،ومن ضمن التغيرات الشعرية التي لفتت انتباهنا هو اعتمادهم في خطابهم الشعري على ما يسمى بالتعدد اللغوي من جهة، ومن جهة أخرى توظيف العامّية،وذلك للتعبير عن مشاعرهم الحساسة كتوظيفهم الجسارة اللغوية و الألفاظ الأجنبية،فقد كانوا في طليعة من تغنى بهذا التنوع اللغوي والعامّية بغية لفت انتباه المتلقي.

ومن بين هؤلاء الأعيان المرموقين الذي نجد عنده هذا التعدد اللغوي والعامّية نذكر الشاعر لخضر بن خلوف، الذي فضلنا أن يكون محور هذه الدراسة،هذا الشاعر الذي يبعد عنّا ما يفوق خمسة قرون،فما الحافز والباعث وراء ذلك؟

الكلمات المفتاحية:التعدد اللغوي ;العامّية ; الثقافة: ؛ الشعر;الشاعر لخضر بن خلوف;

<u>The summary.</u>

Anyone who observes our Maghreb heritage, will notice that is it rich as far as communication and poets are concerned…We ;mean famous poets i.e. those who developed the poetic discourse. Those poets gave Importance to what we call multilingualism also to the use of dialects. They used them to express their Feelings and emotions, For instance they employed strange and foreign expressions. They were the first to introduce the linguistic diversity and dialect so as to attract the attention of the receiver Among these poets, who gave Importance to the concept of multilingualism, we have the greatest poet Lakhdar Ben Khlouf. Infact we have chosen hi; to be the reference of this study though he was alive five centuries ago. So what is the cause? Let s say what is the motivation? What is the reason for this?

Keywords : multilingualism; dialects ; Poetry; the culture ; poet Lakhdar Ben Khlouf..

المداخلة:

إن الكلام عن لخضر بن خلوف يعني الكلام عن **التعدد اللغوي والثقافة الشعبية الجزائرية** في آن واحد من جهة،ومن جهة أخرى هو الحديث عن **الشعر** بجميع أغراضه بل ومواضيعه التي تطرّق إليها فحول الشعراء من غزل ووصف، ومدح ورثاء، وكرم وجود، وشجاعة وفخر، وغير ذلك.

وإن عبارة **التعدّد اللغوي** لتوحي بأن صاحب الكلام **يتحدّث بأكثر من لغتين،أو إن شئت قلْ يستعمل في كتاباته لغتين فأكثر**[1]، وليس من قبيل المصادفة أن يحظَى موضوع التعدّد اللغوي واستعمال العامّية بمقدار

كبير في قصائد بن خلوف؛ هذا الشاعر الذي يبعد عنّا بما يزيد عن خمسة قرون ،فما الدّافع وراء هذا التعدّد وهذه الجسارة اللغوية؟

أما لفظة **الثقافة** فإنها تومئ إلى **جملة العلوم والمعارف،والفنون التي يطلب الحذق بها**[2] ،ولكلّ شعب مراجع تؤثّر في تكوين شخصيتهم وثقافتهم، وممّا أثّر في شخصية بن خلوف وفي أعماله القرآن الكريم الذي كان دائم الاقتباس منه، والحقيقة أنّه لَشيء رائع وممتع أن نجد جلّ قصائده الشعرية قد غَرفت من القرآن الكريم،هذا الكتاب المقدّس الذي يعدّ **معجزة الدّهور، يفيض بالصّياغة الجديدة والمعنى المبتكر يصور تقلبات القلب وخلجات النفوس، وهو النص المقدس الذي أحدث ثورة فنية على معظم التعابير التي ابتدعها العربي شعرا ونثرا،ليخلق تشكيلا فنيا خاصا متناسق المقاطع تطمئن إليه الأسماع والأفئدة في سهولة ويسر**[3].

أمّا لو عرجنا إلى مصطلح **الشعر** ، فإذا كان معناه عند الشعراء القدامى **هو كلام موزون ومقفّى**، فإنّه لدى بن خلوف صبابة وحب، نزعة ورغبة، وليس اهتماما بالوزن والقافية، بل تمرّدا على كلّ ما جاء في القصيدة العمودية،أي أنّه سبق أصحاب الشعر الحرّ بقرون الذين نسبه **معظم مؤرخي الشعر العربي الحديث أن ريادته تعود إلى نازك الملائكة بقصيدتها " الكوليرا " سنة 1949، وبدر شاكب السيّاب ،وقد راحت دعوة الشعر الحر عندهما تتخذ مظهرا أقوى تشق طريقها لتعم البلاد العربية رغم الظروف المعرقلة، وقصدا بالشعر الحر أنه شعر ذو شطر واحد، ليس له طول ثابت، ويقوم الوزن فيه على وحدة التفعيلة مع حرية التغيير في عددها من شطر إلى آخر بحسب ما تقتضيه فكرة الشاعر وانفعاله العاطفي**[4].

فإذا ما ولّينا وجوهنا شطر قصائد شاعرنا بن خلوف، نجد أنّ ما أَوصله إلينا، وجعَلَنَا نتدارسه اليوم يحمل في طيّاته قِيَما نفيسة وإن كان مليء بالتنوّع اللغوي والعامّية إلا أن هذا لا يُنقص من استقطاب السّامع وجلب النقّاد، فمثلا تستوقفنا عبرات صوفية، يمدح فيها سيّد الخلق والأنام، يفوح أريجها ما بين الأبيات،يقول فيها:

سَعْدِي مْعَ النّبي بَتْ مْعاهْ البَارحْ مْشرّفْ النّسبْ جَابَهْلِي مولاني[5]

قَاصِيتْ وَفْنِيتْ يا ضْيَا عِيّاني طُولْ الزّْمان راني سَاهَرْ الدِيجُور[6]

صَبْرِي عْلَى النّبي محمَّدْ خير الأنامْ صبر البشَاشِرْ الرّضاعْ الصّبياني[7]

فمثلا كلمة **جابهلي** يقصد بها جاء به لي،ونحسب هذا من باب الإيجاز،فالعرب تختصر الكثير من الجمل المتداولة إذا أصبحت بديهية لدى الناس كاختصارهم بسم الله الرحمن الرّحيم في البسملة،ولا حول ولا قوّة إلا

بالله العليّ العظيم في الحوقلة وهلمّ جر،فشاعرنا سار على خطاهم في هذا الإيجاز ، وإن بدا لنا أنّه نزل بالفصحى إلى العامّية.

أمّا قوله **ضْيَا عيّاني** فإنّه يقصد بذلك ضياء عيوني أي حذف الهمزة،ومعنى البيت أنّ النّبي عليه الصّلاة والسّلام يشبه ضوء العيون التي ينير بها هذا الكون.

وتبقى كلمة **البشاشر** في البيت الثالث التي لم أجد لها معنى،إلا أني أراها مأخوذة من البشرى أي أنّ بن خلوف يشتاق إلى خير الأنام المبشّر والمفرح كاشتياق وصبر المبشّرة بالرضيع.

ولما كان حال الناس بسيطا وجب أن يكون أسلوب التّلقين متماشيا مع عُرف الأمّة وعوائدها، فالمدّاحون والمنشدون هم أكثر استقطابا للسّامع،وأَوفَقُ إبلاغا للصوت من المقامع، ولهذا نجد أنّ العامّية قد تخلّلت شعره، وكذلك مصطلحات من لغات أخرى ،من ذلك قوله دائما في مدحه لنبيّ الأمة:

يا عَالِيْ النّسَبْ لَا تنسى المدَّاحْ تَكْلوا على الله المولى وْعْليكْ

في كلّْ أرض درتْ عليك البرّاحْ محمد الشْريفْ صلّى الله عْليكْ

نْسَالَكْ يا حبيبْ ربّي بادوني وبشمريخْ جود عنّي[8]

فقد تُرجمت كلمة **أدوناي** من اللغة العبرية ويُقصد بها الله، أمّا **شمريخ** فتعني رأس الجبل وأعالي السّحاب[9]، فالشاعر يحاول من خلال هذه الأبيات أن يتقرّب من نبيّ الأمة، ويطلب منه الشّفاعة وذلك من خلال مدحه في ربوع الأرض، فوصف الحبيب عنده لَيقْتَبِسُ صوره من البيئة التي تحيط به، بل وَلَم يكتف بذكر صفات النبي فقط،ها هو ذا بعد ذكره لأهمّ الصّفات التي يتّسم بها خير الخلق والأنام، يذهب إلى أبعد من ذلك وهو طلب الشّفاعة منه.

ونجده بعد ذلك يُفَصِّلُ ويُمَثِّلُ عن الكثير من التنبّؤات التي توقّعها أن تقع في زماننا الراهن، ويُحدّد مسمّياتها في قالبه الشعري الملحون، والذي يشهد مالَه بأسبقية في الخروج عن شكل القصيدة القديمة، يقول فيها:

نْوَرّي للمُومْنِينْ عِلْمِي عَلى آخر الزْمَانْ فِيمَا يَأْتِي وَيْروحْ

يْعُودْ وَلْدْ الحْرَام نِعمَة والعالم في الحديث يرْجَعْ مَا يَسْوَاشْ

وْقَايَدْهَا مَا يقولْ سَهِي يَرْجعْ ولْدْ الشراف من وطنه مليوحْ

السُوقْ على الزْقَا مْخلَّطْ يَلتمُّوا فيهْ اللْصُوصَة والرهبان

مَا تعقلْ فِيهْ من مْغَرْنطْ ولا من هو بخيرولا من شبعان

جْذَبْ جَذْبَة بلا مَدَامي إلِي تْقُولْ مْلِيحْ تجربه مَقْصُوحْ[10]

نرى أن هذه الأبيات قد استمدّ عبيرها من وحي الرّسالة المحمّدية الدّاعية إلى الإصلاح والسّلام، ونبذ أشكال التجاوز كالظلم و البطش والاعتداء والسّعي لنشر المسالمة والاعتدال، والذي يُلفت انتباهنا أكثر أنّ المفردات العامّية الصِّرفة حاضرة

بقوّة في القصيدة كقوله:(يوري، مليوح، ما يسواش، الزقا، مغرنط، جذبة، مدامي، مقصوح) والتي نقصت حروفها لا للضرورة الشعرية على الإطلاق،وإنما هو دَيدَن شاعرنا أنه يلفظها كما تلفظ في الأسواق.

ومواصلة مع قصائد شاعرنا التي استحسنها بنو عصره،بسبب ما تتزيّن به من أحداث لا نراها غيبية مثلما يَتوهَّمُها البعض بقدر ما هي مؤشّرات نبوية،بل ومواصلة مع توظيفه للعامّية وبعض اللغات الأجنبية التي كانت بعيدة عن الرّكاكة والابتذال بما يناسب المتلقّي في عصره؛كون هذا الأخير – المتلقي – هو الرّهبان الموجّه لسفينة شاعرنا ومُلهِمه،نجده يقول:

بْقَاوْ يْلايْمُوا الجرامِي أبْشِرْ بالخير يَا إلِي أجلك مفتوحْ

نوَرِيلَكْ فَائِدة احْضِيهَا عن مايأتي ويزيد في بلاد سعيد

كْلام المُومْنِينْ دَفْلَى وكلام الفاسقين مَقبُولْ فِيهْ القُوتْ

ولاَ أنت خُوجَهْ كتاب عند الدّولة خَصْلَكْ جَايَزْ عند الناس

لاَ أنت خَايَنْ قَبضُوا عْلِيكْ خْيَانَة بَاعُوكْ بْقِيمَة ربْعِين سُلْطَانِي[11]

فالرّجل من خلال هذه الأبيات داعية ومفكّر ومصلح اجتماعي،وأهم شيء مذكّر لأمته بأسلوب يتماشى مع قومه،فقد ذكر مواضيع شتّى من أوامر بالمعروف ونهي عن المنكرات اقتبسها من تنبّؤات محمّدية بشّر بها الهادي صلى الله عليه وسلّم عن أزمنة متلاحقة من بعده،مستعملا اللغة العامّية في قوله (يلايموا، الجرامي، إلي، نوريلك، دفلى)، كما استعمل مصطلحات تركية كقوله (خوجة، ربعين سلطاني)، فكلمة خوجة تعني منصب إداري إبّان الحكم العثماني، أمّا كلمة سلطاني فهي عملة نقدية آنذاك، ولعلّ سبب استعماله هذه المصطلحات كونها كانت تُناسب المتلقّي ويفهمها.

ويكأن بن خلوف يطلعنا من شعره على نوعية المتلقّي ومستواه الفكري واللغوي، ورغبته وميوله، إذ من البديهي لا يمكن لأي شاعر في أي زمان كان،أي ينظّم لأمته ما لا تفقهه.

ثم نجد الشاعر في قصيدة أخرى يتحدّث عن الزهد جمالية أسلوبه الأغرّ والفتّان، وإذا كان الزهد في نظر العلماء هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال فتصغر في عينك،فيسهل عليك الإعراض وعدم التعلّق بها طمعا في الآخرة[12] فإنّ بن خلوف في زهده ليس بمنأى عنهم، ويوضح ذلك في قوله:

رَاغَبْ في الدُنْيا بْزُهْدِي في ديني شَقّيْتْ الاعْدَا

يَا قَطْعانْ يْدَيَّا بْيَدِّي ما نَقّلْتْ حتّى بْسَجْدة

يا مُحَمّدْ يا سِيدي صَلّى الله عْليكْ لَبدا[13]

انطلاقا من هذه الأبيات وغيرها، يتّضح لنا أن زهد بن خلوف هو زهد خاصّة الخاصّة المتمثّل في إعراضهم عن كل ما سوى الله من الأغراض، ويتضمّن الزهد عنده الرّجاء والرّغبة والتبتُّل[14].

ولعلّ وقفة أخيرة مع الأبيات التّالية،التي يتحدّث فيها عن جوانب الحياة الاجتماعية في الجزائر، ويوصي فيها ببعض الخصال تكفينا مؤونة البحث لنبرهن مدى عدوله باللفظ الفصيح إلى العامّية واسخدامه بعض اللغات الأجنبية.

فمن المناقب التي بالغ في الاحتفاء بها في قصائده هي **حسن الضيافة** كونه مقصدا من المقاصد الخلقية من جهة،ومن جهة أخرى تهدف للمحافظة على العلاقات،وإفشاء المحبّة والتواصل مع الغير،ولعلّ هذه الصفة توحي بعقلية العربي القديمة كحاتم الطائي مثلا، ولا يخفى علينا أن بن خلوف **ترعرع وتربّى في بيئة معروفة بخصال العرب كالكرم والجود وهي جبال مغراوة بالجزائر طبعا**[15] ،وفي ذلك يقول:

نَخْلَة مْثَبْة تَلقَحْ بَعْد اليْبُوسْ احْدَاهَا يْكُونْ قَبرِي يا مسلمين

انْتَ يَا مُحمَّد تْهَلَّى في خيمتي انْتَ كبير داري وْانْتَ مولاها

قُومُوا جَنَازتي وْاعْطُوا المعْرُوف هَذي وْصِيْتِي لا ناقص لَا زايدَة[16]

نرى أن في وصيّته لا يشترط انتقاء الضيف واختياره، وإنما يرى كل ما يقبل عليهم ينبغي أن يجد الاستضافة والتّبجيل مهما يكن مسقط رأسه.

كما أنّ الانزياح باللفظ الفصيح في قوله (داري- تهلى) إلى ما استُهلك في عامّية الفصحى غير بعيد عن عصره بكامل حروفه عَدَا ميل بسيط في حركات الشّكل وتبديل الهمزة القوية إلى ياء،ولا نجد التنوّع اللّغوي حاضر هنا بقدر ما هو استسهال ونزول إلى العامّية في بعض المفردات.

وفي الأخير نصل إلى إقرارنا أن بن خلوف استطاع بما نظمه من قصائد لا أن يستوقف بني عصره فحسب،بل امتدّ اسمه ساطعا من بعده فيما خلّدته الأجيال،ونصّبته معلما صوفيا بات يُزار بفضل سلاسة لغته الشعرية وبساطة تراكيبها من جهة ،وتواري بعض معانيها واختبائها خلف زمنها الذي لم يَحِنْ بعد.

هذه الثنائية من أهمّ ما يميّز قصيدة بن خلوف في استشرافه أحداث لا نراها غيبية مثلما يَتوهَّمُها البعض بقدر ما هي مؤشّرات نبوية ...وهو المادح الشغوف بتعطير قصائده بابتهالات المصطفى وترانيم يصلّي فيها عليه.

وممّا يجدر التنويه به،هو اعتماده على ما يناسب المتلقّي من عامّية نزل بها من الفصحى العربية بتصرّف في حركات حروفها، وأحيانا استبدالها بحروف غيرها،أضِفْ إلى ذلك توظيف مصطلحات من لغات أخرى،هذه الأخيرة التي اكتست بعض قصائده،ولم تضْفِ إلا جمالية،ولا يخفى علينا أنّ أفضل العمل الإبداعي هو ما انتشر قرّاؤه واقتدى به نُظراؤه.

هوامش البحث:

[1]- دليل السوسيو لسانيات، فلوريان كولماس، تر خالد الأشهب، مركز دراسات الوحدة العربية ط1 2009،ص115.

[2]- مقدمات في الثقافة الإسلامية، سليمان القوسي، دار الصميعي للنشر والتوزيع، ص36.

[3]-التناص في الشعر المعاصر، التناص الديني نموذجا،لظاهر محمد الزواهرة، دار ومكتبة الحامد للنشر والتوزيع، ط1،2013، ص 12.

[4]-ينظر موقع اللغة والثقافة العربية، بقلم محمد بكري، النسخة الإلكترونية من صحيفة الرّياض اليومية، 2013، العدد 16276.

[5]-جمعية آفاق مستغانم، سيدي لخضر بن خلوف، حياته وقصائده، منشورات دار الغرب للنشر والتوزيع –وهران- 138/1.

[6]-المرجع نفسه، 181/1.

[7]-المرجع نفسه، ص 112/1.

[8]-المرجع نفسه، ص 138/1.

[9]- ينظر بخوشة محمد الحاج الغوثي، ديوان سيدي لخضر بن خلوف، الرباط، مطبعة الشمال الإفريقي، ص 39.

[10]- منشورات جمعية آفاق مستغانم، المرجع السّابق ، ص 232/1.

[11]-ينظر المرجع نفسه، ص 233/1.

[12]- ينظر كتاب الزهد لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا القرشي البغدادي دار بن الكبير للطباعة والنشر والتوزيع،ط1 1999،ص06.

[13]-منشورات جمعية آفاق مستغانم، المرجع السّابق، ص 91.

[14]-ينظر الحب الصوفي في شعر سيدي لخضر بن خلوف، حاكمي لخضر، مجلة دراسات جزائرية،2013 ،العدد 11/10، ص185.

[15]- ينظر ديوان لخضر بن خلوف لبخوشة محمد الحاج الغوثي، المرجع السابق، ص59.

[16]- المرجع نفسه، ص 190.